ثنائية التشاكل والتباين في الخطاب النقدي المغاربي الجديد.

الأستاذ: محمد دبيح
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات والفنون
جامعة سعيدة– الجزائر

الملخص:

يهدف المقال إلى تقديم دراسة معرفية توضيحية لمصطلحي التشاكل والتباين في الخطاب النقدي المغاربي الجديد، فنتناولهما بالشرح والتحليل، فالتشاكل والتباين وإن كانا إجراءان سيميائيان جديدان، لهما خيوط تترابط وتتواصل مع التراث النقدي العربي القديم، وتتقاطع معه في كثير المفاهيم والأسس والغايات. مما جعل نقادنا المحدثين يعكفون على الأخذ من التراث ما قد يسهم في تأثيل المصطلحين من التراث وإعادة بعث ما يتقاطع معهما من جديد، وهذا ما تروم الدراسة تحقيقهن من خلال بحث هذه الثنائية في الخطاب النقدي المغاربي الجديد.

وفد مصطلحا(Isotopie, Allotopie) إلى الثقافة العربية مع المناهج النقدية الغربية المهاجرة، وفيهما اضطراب في ثقافة المنشإ نفسها، إذ ما زالا في بداية تشكلهما كمفهومين سيميائيين يفترض تطبيقهما في الخطاب النقدي الجديد بحثا عن الانسجام النصي، وتلمسا للخصائص والسمات الأسلوبية المتفردة، ودفعا للغموض الذي يعتّم النص الأدبي.

هذا الاضطراب الذي اكتنف المصطلحين بدا تأثيره جليا في الدرس النقدي العربي عامة والمغاربي خاصة، والأمر يتعلق بكيفية مقابلة المصطلحين الوافدين وأنساقهما بلفظ عربي مبين لا يختلف في تأسيسه المؤسسون.

ومع ذلك تشعبت السبل بالمنظّرين، واختار كل لساني وباحث منظومة مفاهمية ومصطلحاتية خاصة به رآها قمينة بالبحث والنقد، على صعيد الوصف والكشف والاختبار. وقد ساعد على اتساع الهوة بين النقاد العرب العديد من الوسائط التي على أساسها تم هذا التفاعل الفردي المنقطع عن الجماعة، ولعل أبرزها:

- الكتب والمجلات الغربية المتخصصة التي يقتنيها الباحثون فرادى.

المنارة للاستشارات

- الترجمة التي يقوم بها الباحثون العرب بعيدا عن هيئات ومراكز بحثية مختصة في ذلك أو في غياب شبه كلي لهذه المراكز والمعاهد المتخصصة في الترجمة.

" فكتاب دي سوسير ترجم في المغرب وتونس والمشرق، وبعض مقالات بارت تترجم في العراق ومصر وسوريا والمغرب"[1].

- البعثات العلمية والثقافية إلى جامعات أجنبية لتحضير رسائل أو أطروحات أو لتنفيذ مشاريع دراسية.

1- طرق نقل المصطلحين إلى الثقافة العربية:

هناك طرق كثيرة يتم بها نقل المصطلحات والمفاهيم الأجنبية الوافدة، منها: الترجمة وفي حال تعذرها يلجأ الباحثون إلى التوليد في الصيغة عن طريق الاشتقاق أو القياس أو النحت أو التركيب، فإذا استحال على المترجمين إيجاد المقابل العربي بواسطة التوليد اللفظي لجؤوا إلى التوليد الدلالي من خلال توظيف مصطلحات ومفاهيم تراثية في معنى جديد مطوّر بتوسيع دلالاتها على ضرب من المجاز. وفي حالات أخرى لا يكلف الباحثون عناء أنفسهم في البحث عن المقابل العربي فيكتفون بتعريب المصطلح الأجنبي تعريبا كليا أو مع شيء من التعديل أو التغيير. وقد يجمع في حالات عديدة بين طريقتين أو أكثر.

1.1- الترجمة:

تعتبر الترجمة من أولى الوسائل وأهمها في نقل المصطلحات الأجنبية إلى العربية، وذلك يعتمد بالدرجة الأولى على وجود مقابل عربي يساوي أو يقارب اللفظ الأجنبي مع مراعاة أمرين هامين:

- الفهم الدقيق لمفهوم المصطلح الوافد ضمن إطاره العام.
- مناسبة المصطلح العربي المقابل مناسبة نطقية وصياغية دون إغراب أو شذوذ.

وفي مجال البحث عن مقابل عربي يساوي أو يقارب اللفظ الأجنبي سلك الباحثون العرب مسالك متعددة ومختلفة، حيث قابلوا« Isotopie» بألفاظ عربية متعددة وكذلك فعلوا مع مصطلح« Allotopie» وأنساقهما المتعلقة بهما أيضا. وقد انتهج هذا السبيل كل من محمد مفتاح وعبد الملك مرتاض وعبد القادر فيدوح وبسام بركة...

Isotopie: التشاكل، المشاكلة، المعادلة، التناظر.

Allotopie: اللاتشاكل، التباين، الاختلاف.

المنارة للاستشارات

2.1- التعريب:

ويتم بنقل المصطلح الوافد بحاله إلى الثقافة العربية مع بعض التغيير والتعديل في صورته بالقدر الذي يوافق القواعد الصوتية والصرفية في اللغة العربية، وقد اختلف في ذلك كثير من الباحثين، فمنهم من رفض التعريب بحجة إفساد اللفظ الأجنبي اللغة العربية وتشويه معجمها، وآخرون حمدوا هذا السبيل وشجّعوا على اتباعه ورأوا في ذلك محافظة على نقاء التراث العربي، ومراعاة لأنساقه وقواعده.

وأشهر من ارتضى هذا المنهج من الباحثين العرب: أنور المرتجي، ورشيد بن مالك حيث عربا« Isotopie» إلى« إيزوطبية»

3.1- الترجمة والتعريب:

غير أن هناك قلة من المترجمين والباحثين جمعوا بين الطريقتين معا مقابلين « Isotopie» مرة بالتشاكل، ومرة أخرى بـــ« إيزوطبية» وهذا أمر معروف متداول في أدبيات عبد الملك مرتاض الذي يأخذ بالمعيارين معا.

ويمكننا التمثيل لهذا الاختلاف من خلال الأمثلة الآتية المقتطفة من المتون النقدية للباحثين العرب:

- عبد الملك مرتاض:
  - التشاكل، التباين:« المستوى الرابع: التشاكل والتباين في نص سورة الرحمـــن»[2].
  - إيزوطوبية:« إن هذه الآية تحمل إيزوطوبية»[3].
  - المشاكلة:« والمشاكلة أو التشاكل فرع من فروع السيميائية»[4].
  - اللاتشاكل:« أما اللاتشاكل فيقوم في هذا الكلام على أساس التأليف بين أطراف متناقضة وهو ما يمكن أن نطلق عليه التباين»[5].
- عبد القادر فيدوح:
  - تشاكل:« أما الأرض والروضة فيبرز تشاكلهما المعنوي»[6].
- رشيد بن مالك:
  - إيزوتوبيا:« تضمن الإيزوتوبيا التحام الرسالة أو الخطاب»[7].
- محمد مفتاح:
  - تشاكل، تباين: عنوان الفصل الأول« التشاكل والتباين»[8].
  - معادلة:« وقد أسمته البلاغة العربية القديمة المعادلة»[9].

المنارة للاستشارات

- عبد السلام المسدي:
- تشاكل، تباين: ثبت المصطلحات[10].
- سعيد بنكراد:
- تناظر: ملتقى سيميائية السلوك بوهران. أفريل 2009.
- عبد الله الغذامي:
- المشاكلة، الاختلاف:« وهو مبدأ يسعى إلى الجمع بين الشيء وشكله وقد نسميه هنا مشاكلة»[11].

« ومن هنا جاءنا هذا المبدأ الجديد مبدأ الجمع بين شدة الائتلاف وشدة الاختلاف»[12].

وتجدر الإشارة إلى أن نقل المصطلحين« Isotopie, Allotopie» يقتضي بالضرورة نقل المنظومة المصطلحية والمفاهيمية التي ينتمي إليها هذان المصطلحان.

هذه المنظومة على سبيل المثال تتضمن المصطلحات الآتية:

«Sème, Sémème, Lexème, Monème, Phonème, Morphème, Classème..» وفي ترجمة هذه المفاهيم يجد الباحث تباينا واختلافا كبيرين، إذ لا يهتدي إلى مضمونها ودلالاتها المشحونة فيها إلا بعد اطلاعه عليها في الثقافة التي ابتدعتها واصطنعتها كأدوات نقدية جديدة، هذا إذا قدر له الإحاطة بالأصول المعرفية والابستمولوجية التي نمت وتطورت في ظلها.

والجدول الآتي يوضح اختلاف الباحثين العرب في اختيار المقابل العربي المناسب لهذه المصطلحات:

المصطلح الأجنبي	المقابلات العربية
Sème	مقوّم– معنم– دليلة– سيم– معنيم...
Sémème	وحدة دلالية– معنم– سيميم– مفهم– وسم...
Lexème	وحدة معجمية– لكسيم– مفردة– وحدة جذرية.
Monème	دليلة– وحدة دالة– مونام– كليمة– كلمة.
Classème	وحدة دلالية سياقية– قسيم– مصنف– كلاسيم.

فبأي مقابل عربي يتسلح الباحث بعد هذا الاختلاف، وقد تشبعت به السبل في ميدان البحث اللغوي المعاصر والممارسة النقدية الجديدة؟

المنارة للاستشارات

2- التشاكل والتباين في التراث النقدي العربي:

يكاد يجمع جلّ الباحثين والنقاد العرب على أن المقابل العربي لمصطلحي « Isotopie, Allotopie» هو التشاكل والتباين.

فما هي الأسس والمرجعيات التي استندوا إليها في اختيارهم هذا؟ وهل يحمل المفهومان العربيان اللذان تعج بهما بعض المعاجم وكتب البلاغة والنقد القديم المضامين والدلالات والأنساق نفسها التي حملها إلينا المفهومان الوافدان؟ أم أنّ فيهما بعض الخصائص والاستعدادات التي تؤهلهما لأن يركبا مدلولين جديدين في إطار ما يسمى بالتطور الدلالي؟.

ستكون بداية الحفر في المعاجم والمؤلفات النقدية والبلاغية المشهورة والمتداولة، والتي هي عماد مكتبة كل باحث ومبتغى كل قاصد.

1.2- دلالة التشاكل والتباين في المعاجم العربية:

- التشاكل:

ليس من السهولة بمكان أن يهتدي الباحث إلى معنى(التشاكل أو المشاكلة) لكونهما مصدرين مزيدين من« شكل»، ولأن بعض المعاجم العربية لا تتعرض إلى المزيد إلا عرضا، أو بالقدر الذي يتم به تتبع جذور الكلمة العربية ومزيداتها المتداولة. كما أن الوقوف على دلالة المصدرين السابقين يتطلب تتبع معاني الجذر « شكل» وتنوعاته، ومن ثم الصبر على اقتناص المصدرين(التشاكل والمشاكلة) في عرض الكلام أو في آخره. ومع ذلك وبالاستعانة بتقنيات البحث الحاسوبي فإن التوسل إلى بعض المعاجم يسعفنا في الإحاطة بدلالة المطلوب.

ففي معجم مختار الصحاح لأبي بكر الرازي(ت 721هـ) تعني المشاكلة: " الموافقة والتشاكل مثله"[13]، غير أنّ هذه« الموافقة» لم تكن محددة المجال والاستعمال، بل وردت عامة مقتضبة لم تفارق دلالتها المعجمية. وفي لسان العرب نجد المدلولة ذاته[14].

أمّا الطائي الجياني(ت 672هـ) في معجم الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة فيورد مترادفات عديدة للمشاكلة، مما يدلّ على تنوع واتساع المدلول المعجمي لهذا الأخير ليشمل الدلالات الآتية:

المنارة للاستشارات

" المشاكلة: شكله ومثله وقرنه ونظيره وشبهه وجدته وتربه وصنوه وكفؤه وعديله وضريبه"[15].

وفي غريب الحديث يضرب الخطابي مثالا حسيا عن المشاكلة التي هي قرينة الملاءمة" وإنما يقال في باب المشاكلة والملاءمة: هو كرأس في جسد أو كف في ذراع أو نحوهما في الكلام"[16].

فالرأس والجسد متلائمان، والكف والذراع كذلك، ومفردات اللغة متلائمة على نسق المثال الحسي السابق في دلالتها على حقول ذات عناصر مشتركة تتضافر في أدائها لتحقيق أدنى دلالات ذلك الحقل.

إن الأمثلة السابقة تدل دلالة واضحة على أن اختيار الباحثين العرب المحدثين للتشاكل والمشاكلة في مواجهة المصطلح الأجنبي الوافد لم يكن اعتباطا، وإنما كان له ما يبرره في التراث العربي القديم. فالمفردتان العربيتان بما تحملان من شحنات دلالية أولية قابلتان للتطور والتمطيط لبناء جهاز مصطلحاتي عربي مؤسس في هذ المجال النقدي الجديد.

- التباين:

لقد كان للتباين حظ أقل من حظ التشاكل في المعاجم العربية، فالبحث عنه يتطلب فحصا دقيقا وصبرا علميا لا يفتر. ولعل من أبرز المعاجم التي تناولته بالرصف والتوصيف معجم المطلّع لأبـــي الفتح البعلي الحنبلي(ت 709هـــ)، والقاموس المحيط للفيروز أبادي(ت817هـــ)، ومعجم التوقيف على مهمات التعاريف لعبد الرؤوف المناوي وكذلك كتاب التعريفات للشريف الجرجاني(ت 826ه) .

تختلف المعاجم الســـالفة الذكر في تحديد معنى« التباين» اختلافا يتراوح بين الدلالة المعجمية والدلالة المنطقية. ففي المطلّع على أبواب المقنع يقرر أبو الفتح البعلي قاعدة ألسنية هامة تقوم على أن" الأصل في الألفاظ التباين"[17]. وهي القاعدة نفسها التي بلغ بها دي سوسير مبلغ الريادة والاهتمام في البحث اللغوي المعاصر حين أثبت أنّ وحدات اللغة قائمة على الاختلاف فيما بينها، وهذا الاختلاف هو الذي يعطي للعلامة قيمتها في مواجهة العلامات الأخرى المرصوفة معها في النظام.

لكن دي سوسير نظر إلى هذا التباين بمنهج لغوي حديث وبأدوات ألسنية جديدة على خلاف الإطلاق الذي وسم التباين التراثي بالجزئية والتحليلية.

المنارة للاستشارات

أما التباين من جهة المنطق فهو أوضح وأبين عند عبد الرؤوف المناوي(ت 1031هـ) وفي ذلك يقول:" التباين: ما إذا نسب أحد الشيئين إلى الآخر لم يصدق أحدهما على شيء مما صدق عليه الآخر، فإن لم يصدق على شيء أصلا فبينهما تباين كلي كالإنسان والفرس ومرجعهما إلى سالبتين كليتين، وإن صدقا في الجملة فبينهما تباين جزئي كالحيوان والأبيض وبينهما عموم من وجه مرجعهما إلى سالبتين جزئيتين"[18].

فالتباين عند المناوي قائم على الاختلاف والتمايز بين جنسين أو نوعين لا يرتبطان بأي وجه من الوجوه، ومثال ذلك ثنائية(الإنسان والفرس) بينهما تباين كلي، إذ لا واحد من أفراد الجنس الأول هو فرد من أفراد الجنس الثاني. وهذا في عرف المناطقة يسمى بالتباين الكلي السلبي. إن المدلولين السابقين للتباين على بساطتهما وإطلاقهما يوقظان الشعور إلى الالتفات لما وراء اللفظة من مقبولية وتطور وتجدد وفق مسار أكثر تخصصا وتضييقا في مجال الدراسات النقدية العربية المعاصرة.

2.2– دلالات التشاكل والتباين في الدراسات النقدية والبلاغية:

اهتم كثير من النقاد والبلاغيين العرب القدامى بدرس التشاكل والمشاكلة واعتبروه أساس كل تركيب، واشترطوه في كل صناعة لفظية. ومن أمثلة ذلك ما أورده أبو الفتح ضياء الدين الموصلي(ت 637هـ) في كتابه« المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» في معرضه حديثه عن التأليف الأدبي في المقالة الأولى في الصناعة اللفظية:

" اعلم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء:

– الأول: منها اختيار الألفاظ المفردة وحكم ذلك اللآلئ المبددة، فإنها تتخير وتنتقى قبل النظم.

– الثاني: نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا عن موضوعه وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منها بأختها المشاكلة لها.

– الثالث: الغرض من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه، وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم، فتارة يجعل إكليلا على الرأس، وتارة يجعل قلادة في العنق، وتارة يجعل شنفا في الأذن، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة في الحسن تخصه.

فهذه ثلاثة أشياء لابد للخطيب والشاعر من العناية بها، وهي الأصل المعتمد عليه في تأليف الكلام من النظم والنثر، فالأول والثاني من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة والثلاثة بجملتها هي المراد بالبلاغة"[19].

المنارة للاستشارات

إنّ المشاكلة– وفقا للتحديد السابق– شرط أساس في انسجام النظم وتأليف الألفاظ المنتقاة حتى لا يعتري النظم قلق أو اضطراب أو انقطاع يحيد بالكلام عن غرضه الرئيس، ومثال المشاكلة في النظم مثال العقد المنظوم المحكم صناعته من تآلف وتزاوج اللآلئ فيه حتى ليغدو عملا فنيا خالصا يسرّ الناظرين.

والمشاكلة في الدرس البلاغي القديم لم تخرج عن وجوه تحسين الكلام، حيث اقتصرت على تكرار اللفظ بنفسه أو بوقوعه في صحبة مفردات حقله نائبا في الدلالة عن غيره، وما تحرر في هذا المعنى ورد مكررا في الكثير من الكتب البلاغية العربية القديمة. ولعل آخرها تصنيفا وأقربها منا زمنا« شرح مواهب الفتاح على تلخيص المفتاح» لابن يعقوب المغربي(ت 1128هـ).

وفي المشاكلة يشرح قائلا:" وذلك النوع من البديع المعنوي المسمى بالمشاكلة هو: ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا وتقديرا، أي ذكر المعنى ملتبسا في ذلك الذكر بالإتيان بلفظ غير ذلك المعنى"[20].

وهذا النوع من المشاكلة جزئي يتعلق بتركيب معين في بعض الخطابات، وهو أقرب إلى تشاكل التركيب البلاغي الذي انفرد محمد مفتاح بذكره مؤكدا على أهمية هذا الضرب خاصة في الخطاب الشعري الذي يعد مرتعا خصبا في ممارسة اللعب بالكلمات. ومثال هذا النوع من المشاكلة« اسقني طعاما» فالبرغم من أنّ الطعام لا يسقى إلا أنّه جاز ذلك للتزاوج والتلاؤم بين الطعام والسقي، فمتى ذكر الأول تداعى له الثاني، والتلازم بينهما دائم مستمر وما دام الأمر كذلك، فالنيابة ممكنة بسبب المشاكلة التي أساسها التداعي.

وقد أغفل بعض البلاغيين العرب القدامى هذا النوع من المحسنات المعنوية لعدم تثبتهم من حقيقتها وموضعها بين الحقيقة والمجاز، إذ يعتبرها قلة منهم أنها ليست من الحقيقة ولا من المجاز، وآخرون يدرجونها ضمن باب المجاز لوجود علاقة المجاورة الحاصلة بالصحبة الذكرية والتقديرية بين اللفظين اللذين ناب أحدهما عن الآخر في أداء المعنى. وتحقيق الأمر عند ابن يعقوب المغربي أنّ المشاكلة" ليست حقيقة ولا مجازا لأنها مجرد ذكر المصاحب بلفظ غيره لاصطحابهما، ولو كان نحو هذا القدر يكفي في التجوز لصح التجوز في نحو قولنا: جاء زيد وعمرو بأن يقال: جاء زيد وزيد مرادا به عمرا، لوقوعه في صحبة الغير"[21].

المنارة للاستشارات

وبعيدا عن هذا الالتباس يقدّم لنا السجلماسي(ت 704هـ) معالم واضحة الحدود عن المشاكلة من خلال مؤلفه« المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع» وفيه يقرر أنّ العملية الإبداعية تنطلق من النفس كمصدر للمعاناة، ومن الفكر كمقوّم للصناعة في تثبيت حدود العمل الفني من أجل تتبع الوقع في نفس القارئ المتلقي" فعن النفس تصدر الوحدة الفنية وإليها تعود لاستيعابها وتذوقها والتفاعل معها"[22].

وعلى هذا النهج سار أكثر أدباء ونقاد المغرب العربي في بحوثهم ومصنفاتهم النقدية إذ لا تخلو حواشي بحوثهم من الاستعانة بما جادت به قريحة السجلماسي، وخاصة عندما يتعلق الأمر بأساليب البديع.

والمشاكلة عند السجلماسي تختلف عن تلك التي أشار إليها ابن يعقوب المغربي، فهي في المنزع أكثر ارتباطا بألوان البديع منضوية تحت الجنس العاشـــر وهو « التكرار» الذي يعني:" إعادة اللفظ الواحد بالعدد أو بالنوع في القول مرتين فصاعدا"[23].

والتكرير جنس عام يندرج ضمنه نوعان: التكريـــر اللفظي وهو الذي يصطلح عليه بالمشاكلة والتكرير المعنوي وهو ما يسمى بالمناسبة. ودرس المشاكلة طويل ممتد يحيط بأجزائه وحدوده المخطط الآتي:

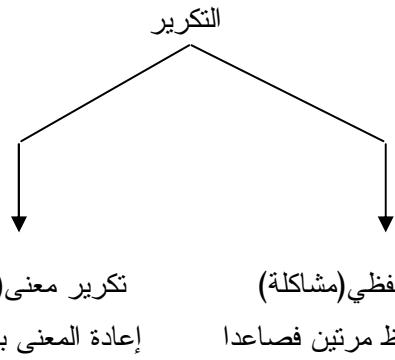

والمشاكلة أقسام وأنواع كثيرة يمكن توزيعها في التشجير الآتي[24]:

المنارة للاستشارات

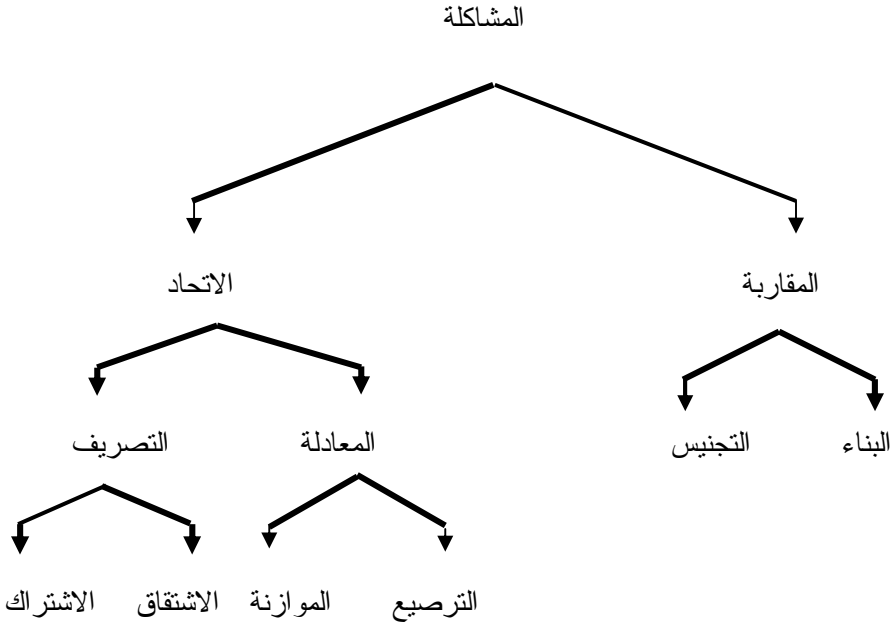

لقد مثّل السجلماسي للأقسام السابقة- بعد النظر والكشف والتنظير- من آيات القرآن الكريم وأبيات متفرقة من الشعر العربي القديم، فتلك الأنواع تنضر ويقوى أداؤها في هذين المجالين لا غير. والمشاكلة في حدودها لم تخرج عن التكرير اللفظي. فهي " إعادة اللفظ الواحد بعينه وبالعدد أو النوع مرتين فصاعدا"[25]، وأمثلتها كثيرة متعددة تعدد أقسامها وأضربها.

وما يلفت الانتباه ويستوقف المتعة والإحساس بالجمال فيها البدائع الآتية:

- قوله الله تعالى:﴿ أَيَعِدُكُم أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾[26]، والمشاكلة فيها(أنّكم، أنّكم) فالثانية بناء على الأولى، وقد كررت للتذكير والتأكيد.

" وإذكار به خشية تناسيه لطول العهد به في القول"[27]

ومشاكلة البناء" بلاغة بديعة وسبيل من البيان عجيبة تدل على قوة منّة المتكلم في العبارة عن معانيه وتحفظه فيها بما يخلّ في القول بمبانيه... ويستغني عنه عند أمن محذور التناسي"[28].

- قال أبو تمام:

يَمُدُّونَ مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍقَوَاضِبِ[29]

المنارة للاستشارات

المشاكلة في هذا البيت قائمة بين(عواص، عواصم) و(قواض، قواضب)، وهذا النوع من المشاكلة يسمى تجنيس المضارعة الذي يتم فيه إعادة لفظين بمعنيين مختلفين بزيادة حروف أو نقصها أو قلبها أو تقاربها سمعا أو خطا[30].

– قال أبو الفتح السبتي:

عَارِضَـــاهُ بِمَا جَنَتْ عَارِضَاهُ أَوْ دَعْنِي أَمُتْ بِمَا أَوْدَعَانِـــــي

وقال أيضا:

لِقَـــاءُ أَكْثَـــر مَنْ تَلْقَـــاهُ أَوْزَارُ فَلَا تُبَـــالِ أَصَـــــدُّوا عَنْكَ أَو زَارُوا

لَهُمْ لَدَيْكَ– إِذَا جَاؤُوكَ– أَوْ طَارُ فَإِنْ قَضَوْهَا تَنَحَّوْا عَنْـــكَ أَوْ طَارُوا[31]

الأبيات السابقة تتضمن مشاكلة بين الثنائيات:

[(أو+ دعاني)، أو دعاني]

[(أوزار)،(أو+ زاروا)]

[(أوطار،(أو+ طاروا]

وهذا النوع من المشاكلة يسميه السجلماسي تجنيس التركيب، وهو واقع في قسم التلفيق الذي تكون فيه إحدى الكلمتين– وهي المركبة– تساوي الأخرى بمجرد التركيب فقط من غير زيادة ولا نقص بحسب موجب أحكام وضع اللسان[32]. وفي حقيقة الأمر أن هذا التجانس واقع بين تركيبين لا كلمتين، ويمكن تمثيل التجانس الأول وفق ما يأتي:

– (أو+ دعاني)،(أودعاني).

(حرف عطف+ فعل ماض مجرد+ فاعل مستتر+ نون الوقاية+ ياء المتكلم مفعول به)

يتشاكل مع(فعل ماض مزيد+ ألف الاثنين فاعل+ نون الوقاية+ ياء المتكلم مفعول به)

وهو ما اصطلح عليه محمد مفتاح بتشاكل التركيب النحوي، حيث نجد الكثير من المقولات المتشاكلة على مستوى هذين التركيبين وخاصه في الشعر.

وعلى مستوى المعنى لم يتناس السجلماسي دور التكرير في تجانس الخطاب وتلاؤم أجزائه ووحداته، ولكن تحت مصطلح قسيم للمشاكلة، وهو" المناسبة" وفي ذلك يحرر قائلا:" فإنما نريد بالمناسبة والتكرير المعنوي إيراد المعنى وما يليق به... تحته أربعة أنواع: الأول: إيراد الملائم والثاني: إيراد النقيض والثالث: الانجرار والرابع: التناسب"[33]

المنارة للاستشارات

التلاؤم والانجرار والتناسب مصطلحات بلاغية تدل على انتماء الألفاظ إلى حقل دلالي واحد تميز فيها العلاقات داخل هذا الحقل ما إذا كانت علاقة ارتباط أو تلازم أو تناسب. أما النقيض فيدل على اجتماع الأضداد وتجاورها في التركيب.

ومن صور المناسبة ذكر الشيء وشبيهه مثل(السرج واللجام)،(الشمس والقمر)، أو الشيء وما يستعمل فيه مثل(القوس والسهم)،(القلم والدواة). هذا على مستوى التراكيب الجزئية.

وقد تكون المناسبة أيضا مطلوبة على مستوى النص ومثال ذلك ما نقله إلينا السجلماسي من حديث المتنبي ومنتقديه في مجلس سيف الدولة حين أنشد قصيدته الميمية المشهورة التي مطلعها:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ

" استحسنها الشعراء والعلماء والأدباء وجهابذة النقد الحاضرون بالمجلس: فقال أحدهم:

إنها حسنة لولا أن فيها شيئا. فال سيف الدولة: وما ذلك الشيء؟ قال إنه لما قال فيها:

وَقَفْتَ وَمَا فِي المَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ

تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

ولو ركّب عجز البيت الأول على صدر الثاني، وعجز الثاني على صدر الأول لكان أحسن في صناعة الشعر وأليق بالمعنى وباللفظ، فكان يقول:

وَقَفْتَ وَمَا فِي المَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهْوَ نَائِمُ

انبهر الحاضرون لهذا التصويب، ووقع المتنبي في حرج كبير، غير أنه سرعان ما استنجد بقول امرئ القيس:

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلَّذَّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ

وَلَمْ أَسْبَإِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِي: كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

فقال المنتقد: وقد غلط امرؤ القيس، وجهل كما جهلت، فإنه كان الأولى أن لو قال:

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِي: كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

وَلَمْ أَسْبَإِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ لِلَّذَّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ[34]

المنارة للاستشارات

وكان المنتقد قد أسس نقده في الأبيات السابقة على ضرورة مراعاة تناسب وحدات البيت الأول من أجل بناء حقل دلالي واحد وهو" لذة ركوب الخيل" وفي هذا الحقل تتضافر الوحدات(الحرب، الكر، الفر، الجواد، خيلي) لأجل إثمار دلالة الحقل. بينما في البيت الثاني يتأسس حقل دلالي ثان يتمثل في" اللذة" بشكل عام، ولكنه مرتبط بالحقل الأول. وفي هذا الحقل تتجاور الوحدات(الشرب، اللذة، النساء) مؤسسة لذة من نوع آخر.

ومع ذلك فإن المتنبي لم يستسلم، فقد ألهم إليه الجواب وعثر عليه في حاله، في قوله تعالى:﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَـــى﴾[35]، حيث جمع بين(الجوع والعري) و(الظمأ والضحو). فقال سيف الدولة:" الله أكبر. هذه والله الحجة البالغة. صدق الله وهو أصدق القائلين"[36].

وقد انتصر المتنبي بذلك لامرىء القيس ولنفسه معللا ومبيّنا التناسب الخفي بين المقوّمات الدلالية، والذي لم يدركه المنتقص والحاضرون فقال:" ولو قال امرؤ القيس كما قال المنتقد لسقط من الكلام فائدة كبيرة. فإنّ سباء الزق معلوم أنّه إنّما يكون للذة، وإنّما أراد أن يذكر هنا لذة ركوب الصيد، وكان على ما عزم يسقط هذا من الشعر... ومع ذلك فإنّ امرأ القيس لا يحمل أنّه يجهل مثل هذا وهو القدوة في صناعة الشعر، وهو أشعر الشعراء، وإنّما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد وقرن السماحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء، وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت أتبعته بذكر الردى، وهو الموت ليجانسه. ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسا، أو عينه باكية، قلت:" ووجهك وضّاح وثغرك باسم" لأجمع بين الأضداد في المعنى، وإن لم يتسع اللفظ لجمعها"[37].

ولقد سقت هذا المثال للتدليل على أن تراثنا العربي القديم غنيٌ ثر لم يخل من الإرهاصات النقدية المتجددة التي كانت تنبئ بتأسيس نظرية نقدية عربية تنظر إلى القصيدة ككل متكامل بعدما سيطرت الأحكام النقدية الجزئية والتحليلية الذوقية ردحا من الزمن. غير أنّ هذه الإرهاصات لم يكتب لها الاكتمال والنضوج، ولم تتبلور معالم التنظير فيها بل كانت محاولات عرضية متقطعة مرتبطة بمناسبات معيّنة.

إنّ بوادر التفكير في التجديد النقدي العربي اهتدى إليه النقاد والبلاغيـــون العرب بدءا من العصر العباسي، ولكنّ محاولاتهم كانت فردية متفرقة فرضتها البيئة

المنارة للاستشارات

وانفتاح الثقافة العربية الإسلامية على علوم وآداب الأمم الأخرى، كما أنّ هذه الأبحاث والمحاولات لم تتخذ شكل العلم الذي يفسّر ويوضّح ويعلل ضمن منهج وأدوات علمية واضحة.

خاتمة:

فالتشاكل والتباين إذن، إجراءان سيميائيان جديدان، ظهرا في إطار تفكير ومنهج حداثي، انفتح هو بدوره على علوم أخرى واستفاد من أدواتها وإجراءاتها في البحث والفحص والكشف وطريقة الوصول إلى النتائج. والمفهومان من حيث الأسس والغاية ومجال الاشتغال لهما خيوط تترابط وتتواصل مع التراث النقدي العربي القديم، وتتقاطع معه في كثير المفاهيم والأسس والغايات.

" إنّ التجديد يتم دائما على أساس قديم، والتجديد عملية تنتظم في تراث وبما أنّ هذا الفكر له ماض، فهو مختزن فينا كبنية عقلية لا مشعور بها، وكتراث. إنّ هذا الفكر مختزن فينا بكيفية لا شعورية وبكيفية شعورية أيضا فلا يمكن تحديثه إلا من داخله، أي من داخل التراث نفسه"[38].

وفي كيفية تحديث التراث والاستفادة منه يضيف الجابري:" هذا يتطلب بطبيعة الحال لا استرجاع التراث استرجاعا مرآويا، بل إعادة بناء التراث، وترتيب العلاقة بين أجزائه وإعادة قراءته بالشكل الذي يجعله ماضيا له نمتلكه بدلا من أن يمتلكنا، وفي ذات الوقت أساسا للنهضة أي لاستشرافات مستقبلية"[39].

وهذا ما يبرر عودة النقاد والباحثين المحدثين العرب إلى التراث والتنقيب فيه من أجل تجديد المفاهيم والمصطلحات والإجراءات في مجابهة تهاويل الثقافة الغربية ومناهجها وما تحمله في أرحامها من أنساق ثقافية واجتماعية وإيديولوجية.

الهوامش:

1- سعيد يقطين: النقد العربي(مسارات وآفاق)، آفاق نقد عربي معاصر، دار الفكر، دمشق، سوريا، ص: 54.

2- عبد الملك مرتاض: نظام الخطاب القرآني- تحليل سيمائي مركب لسورة الرحمـــن- دار هومة، الجزائر،2001(الفهرس).

3- المرجع نفسه ص: 135.

المنارة للاستشارات

4– عبد الملك مرتاض: شعرية القصيدة– قصيدة القراءة– تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية، ط1، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، 1994، ص: 33.
5– المرجع نفسه، ص: 37.
6– عبد القادر فيدوح: الرؤيا والتأويل، مدخل لقراءة القصيدة الجزائرية المعاصرة، ط1، دار الوصال، 1994، ص: 91.
7– رشيد بن مالك: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، دار الحكمة، 2000، ص: 93.
8– محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري(استراتجية التناص)، ص: 19.
9– المرجع نفسه، ص: 71.
10– عبد السلام المسدي: قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1984، ص: 211.
11– عبد الله محمد الغذامي: المشاكلة والاختلاف، قراءة في النظرية النقدية العربية وبحث في الشبيه المختلف، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1994، ص: 19.
12– المرجع نفسه، ص: 18.
13– الرازي أبو بكر عبد القادر: مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، ج1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1995، ص: 145.
14– ابن منظور جمال الدين: لسان العرب، ط1، ج11، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1995، ص: 357.
15– الطائي الجياني أبو عبد الله: الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة، تحقيق: محمد حسن عواد، ط1، ج1، دار الجيل، بيروت، لبنان، ص: 241.
16– الخطابي أبو سليمان البستي: غريب الحديث، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، ج1، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ص: 287.
17– البعلي أبو الفتح: المطلع على أبواب المقنع، تحقيق: محمد بشير الأدلبي، ج1، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981، ص: 271.
18– المناوي محمد عبد الرؤوف: التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، ج1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ص: 157.

المنارة للاستشارات

19- الموصلي أبو الفتح ضياء الدين: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ج1، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1995، ص: 149.

20- المغربي ابن يعقوب: شرح مواهب الفتاح على أبواب المفتاح، تحقيق عبد الحميد هنداوي: ط1، ج2، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ص: 490، 491.

21- المصدر نفسه، ص: 492.

22- السجلماسي أبو القاسم: المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق: علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، 1980، ص: 120.

23- المصدر نفسه: ص: 476.

24- السجلماسي: المنزع البديع من ص: 476 إلى ص: 525.

25- المصدر نفسه، ص: 476.

26- المؤمنون: الآية 35.

27- السجلماسي: المنزع البديع، ص: 478.

28- المصدر نفسه، ص: 487.

29- المصدر السابق، ص: 486.

30- ينظر: السجلماسي: المنزع البديع، ص: 486.

31- المصدر نفسه، ص: 489.

32- ينظر المصدر السابق، ص: 490.

33- السجلماسي: المنزع البديع، ص: 518.

34- ينظر: المصدر السابق، ص: 522.

35- طه: الآية 118- 119.

36- السجلماسي: المنزع البديع، ص: 523.

37- المصدر نفسه، ص: 525.

38- الجابري محمد عابد: في حوار أجراه معه جهاد فاضل، مجلة الجيل، العدد 6، جوان 1986، بيروت، لبنان، ص: 90.

39- المرجع نفسه، ص: 90.

المنارة للاستشارات